قهوة شتوية – الغريب العائد

وكأنها برودة أتت على فجأة .. فلفحت القلب بنسمات وذكريات .. فأول البرودة ممتع لعاشقيها .. تأتي فنهرب منها ونتدفأ .. بحرارة القهوة والمشاعر .. بدثار من الصوف يدفئ القلب والبدن .. بمتعة بدن يريد أن يتدفأ ورغبة وجه في أن يُلفح فيقشعر معه البدن .. إنه الشتاء .. التناقض في أبهى صوره، البرودة والدفء في آن واحد .. الحنين والعشق في لقطة مطولة .. ما كان يرضيني منك أيها الشتاء سوى خطواتي المتباطئة فوق رمال الشاطئ .. وما كنت أشعر بالشغف سوى من دخان أنفاسي المتصاعد في صباحك الباكر راسمة أحلام وألوان تحت غيام سحاب صديق ما كان يفارقنا طالما أنت هنا .. على حبي للشمس .. فقد كنت ترضيني فأسامحك في غيابها الكبير عني .. إنها أمطارك التي لطالما غمرتني بمزيج من الفرحة والمحو لكل ما قد تعتل به النفس وكأنك تنثرها فوق الرؤس والأبدان فيغتسل البدن كله فيصير هادئا

ومتسامحاً ومنفتحاً لكل ما يرضيه ... أمطار .. وزروع خضراء زاهية .. ورائحة جو تزكم الأنوف بعبقها وبخارها .. ذاك هو الشتاء الذي أذكره .. وأعشقه ..

وكأن الشتاء والقهوة عاشقين حميمين فالعشق هنا عشقين .. إعتدت إحتساء قهوتي في مقهي صغيرعلى شاطئ البحر بموطني بالإسكندرية شتاء .. يوما ما دخلت المقهى وجلست بمكاني المعتاد الخالي .. كان يوماً مطيراً بارداً .. أزحت الكاب الذي أرتديه وهندمت شعيراتي المتناثرة فوق جبيني .. طلبت قهوتي الإسبرسو الساخنة علها تدفئني .. ومع أول رشفة منها شعرت بظل يقترب مني فإلتفتت للخلف وهنا رأيته .. حبيبي القديم الذي إفترقت عنه منذ سنوات .. تجمدت في مكاني ذاهلة وهو إقترب ملقيا التحية : مرحبا يا غريبة .. إبتسمت له مجيبة : من منا الغريب الآن .. متى عدت من سفرتك ..

- عدت منذ فترة.

- أشرت له على المقعد المقابل لي بأن يجلس وقلت له متساءلة :اجازة قصيرة؟

- لا .. طويلة .. طويلة جدا.

رفعت حاجباي في دهشة قائلة : ألم تقل أنك لن تعود لذلك البلد أبدا وأنك لم تعد تشعر بالأمان ولا بقيمتك ولا بأحلامك فيه؟ توقعت ألا أراك مرة أخرى هنا إلا بإجازة قصيرة.

طأطأ رأسه ثم رفعها هاربا من عيناي وقال : يبدو أنني كنت مخطئا .. ربما كنتِ أنتِ على صواب.

اذهلتني صراحته فغمغمت الآن تقول ذلك!! يبدو أن تلك البلاد الغريبة قد علمتك الصراحة والوضوح، كيف ومتى؟ هلا شرحت لي؟

واجه عيناي قائلا: عندما تركتكِ وهاجرت قررت ألا أعود إلى هنا أبدا، خاصة بعد أن آثرتِ أنتِ البقاء هنا عن الرحيل معي.

هربت أنا من عيناه تلك المرة وهو يكمل حديثه "كنت موعود بمستقبل باهر ومال وفير لتخصصي النادر وتميزي وهو ما حصلت عليه وزيادة بالمناسبة إلا انني عندما رحلت تاركا قلبي وكل مالي هنا قررت العمل والانغماس وتكوين ثروة ومجدا وأن أحيا سعيداً .. وجدت نفسي مع الأيام قد حققت كل ما أريد .. وظيفة مرموقة تعبت وبمنتهى البذل حتى أثبتت نفسي وقدراتي بها وموقع قيادي في العمل .. ثروة محترمة جنيتها من حلال

وإستحققت كل قرش فيها إلا أن كل ذلك لم يمنحني وطناً بداخلي .. لطالما شعرت بالغربة وسط هؤلاء الغرباء الذين فشلوا في أن يمنحوني وطناً .. أقمت علاقات عابرة طمحت في بداياتها أن تستمر وتمنحني بديلاً عنكِ وعن إحساسي بكِ لكن الفشل هنا كان يترصد بي فلم أفلح في ذلك أبداً .. ربما لو كنتِ معي هناك ولو بظروف أقل استقراراً مما كنت عليه لأكملت ولما شعرت بالشتات الذي شعرته .. ربما أدركت بعد طول صراع مع نفسي أن الوطن في بعض الأوقات قد يتلخص في قلب يحتويك ويحتضنك .. قلب ينجيك من صراعاتك ويحميك من شتاتك .. أدركت بعد أن حصلت على كل ما صارعت من أجله أن قلب خاوٍ بائس قد يقصم ظهر أعتي نجاحاتك وأقوى انتصاراتك ..

صمت هو وكنت أنا أحاول استجماع نفسي أمام مكاشفته التي لم أعتد عليها من قبل .. قد كان كِبره هو أبرز ما تجابهه حين تحظي به في مجالك الإنساني .. كِبر متناهي لديه بشري يسكنه ..

- صدمك إنتصارك؟
- إنتصاري؟!

- نعم .. إنتصار ما دفعتِ به وقت أن أصررتِ على أن نذهب لفترة ثم نعود لأن روحك لا ترتاح إلى فكرة الرحيل للأبد

- لا أعلم .. ربما تبهرنا فكرة الانتصارات صغيرة كانت أو كبيرة ونحن صغار .. تلهبنا صراعاً وحماساً .. بعد فترة من الوقت وربما من النضج نجد أن مآل الأمور هيناً .. فلا نحن نسعد بجنون لانتصار .. ولا نحن نحزن لما قد يسميه الآخرين هزيمة لنا وانتصار بينِ لهم .. سعيدة بعودتك ..

- ربما يمكننا احتساء القهوة كثيراً بعد الآن .. يبدو أنك لم تتركين عادتك الأثيرة باللجوء للمقهى هنا كلما وددت الوحدة.

- ربما نفعل ببعض الوقت عندما أكون بالاسكندرية.

- هل تمكنت من البعد عنها؟!!

- لظروف العمل والأولاد و.. وزوجي.

- ءءء نعم نعم بالتأكيد.

- لذلك بالتأكيد سنتقابل من وقت للآخر .. يا صديق .. سعيدة بعودتك .. تمنياتي بكل الخير.

ابتسم الغريب ابتسامة تسليم بها الكثير من أمل سطع فجأة ثم غاب .. لملمت أشيائي ورفعت كابي لأضعه فوق شعري وأحكمت اغلاق سترتي على بدني ومددت يدي لمصافحته .. ورحلت.

***